جيرت لوشوتس

زوجان لطيفان

رواية

دار نشر شوفلنج وشركاه

"يمكن للعشاق، لو يفهمون، أن يتحدثوا في الهواء ليلا. إذ يبدو أنه يخفي عنا كل الأمور. هي ذا الاشجار؛ المنازل التي نسكنها، مازالت قائمة. نحن فقط نمرر كل شيء كما لو كان عملية تبادل جوفاء."

راينر ماريا ريلكه، مرثيات دوينو

المجسم هو جهاز لعرض أزواج الصور المجسمة، التي يتم التقاطها بكاميرا ستيريو. بسبب الانحراف الجانبي الصغير ينشأ انطباع العمق المكاني: يعتقد المرء أن الشخص الذي يظهر في الصورة موجود فعلا أمامه. ينظر المرء من خلال المجسم ويظن أنه معه وحده. ولأنك تبقي عدسة عينيك مضغوطة يتم إلغاء إدراك كل الانطباعات البصرية الأخرى حتى تتمكن من التركيز بالكامل على ملامح وجه الشخص الذي يظهر في الصورة.

يمكن أن أتخيل أن العشاق الذين يضطرون للعيش منفصلين عن بعضهم البعض كانوا سعداء جدا بهذا الاختراع. على الأقل لفترة من الوقت، حتى ضاقوا ذرعا بالاشتياق إلى القرب الذي لا يوفره هذا الاختراع.

أما الآخرون الذين وضعوا آمالهم أيضا في هذه التقنية فقد كانوا علماء الجريمة، إذ سمح لهم الاختراع بالبحث في وجه الجاني. أليس من الممكن اكتشاف اللامعقول واللغز الذي دفع المجرم إلى ارتكاب الجريمة من خلال قراءة وجه الجاني، كما يقتفي الصياد أثر فريسته في البرية؟ ألم يكن في هذا المشهد من الطبيعة بما فيها من هضاب ومنخفضات، والتي، على عكس الصور التقليدية، أصبح من الممكن أن يتتبعها المرء بإصبعه، ربما التفسير الذي ظل المرء طوال الوقت يسعى لاكتشافه؟

العشاق وعلماء الجريمة إذا. وكلهم شعر بخيبة أمل في النهاية.

اتصل فوستينهاجين، التاجر، في الصباح، والذي كنت أحيانا أبحث عن الكاميرات القديمة عنده وقال:

"لدي كاميرا استريو من عام 1919. هل أنت مهتم؟ ـ "نعم، أنا مهتم"، ولكن عندما سألت عن السعر، تردد. ثم قال إنه كان عليه أولاً سؤال الرجل الذي وعده بعمولة مقابل بيع تلك القطعة الجيدة. قلت له "افعل ذلك". و بعد أن أنهيت المكالمة خطر ببالي أنه كان عام ميلاده.

كان عام 1919 سنة ميلاد الدي.

صعدت إلى الغرفة العلوية تحت سقف المنزل حيث كان مكتبي، وعندما نزلت في المساء اتصل فوستينهاجين مرة أخرى وقال "الآن أعرفه". لكن السعر الذي سماه كان مرتفعا لدرجة أنني رفضت.

مكالمتان من فوستينهاجين. وفي الليل اتصال من السيدة روث، مدبرة منزل والدي. كانت الساعة تشير إلى حوالي الواحدة والنصف صباحا. دق الهاتف بصوت مرتفع، قمت وذهبت إلى الردهة، والتقطت السماعة وسمعت صوت بكاء مرتفع، ثم بضع كلمات لم أفهمها، ولكن على الأقل تعرفت على الصوت الآن. "السيدة روث؟" أجابت: "نعم"، ثم قالت إنه توفي. لقد عادت إلى شقته في المساء ووجدته ميتا على الكرسي. كان التلفزيون يعمل. كان يجلس هناك، كما لو كان حيا، لكنه كان ميتا.

كانت تتلعثم وتكرر ما تقول، مع توقف بين الجمل. قالت إنها كانت معه في فترة ما بعد الظهر وعادت في المساء لكي تخبره أنها لن تحضر في الأسبوع القادم. لقد نسيت أن تخبره بذلك في فترة ما بعد الظهر. لقد اتصلت به لكنه لم يرد على الهاتف لذلك انطلقت إليه مرة أخرى، إلى فوق الجبل، أي أن زوجها أوصلها بالسيارة إلى هناك. دقت جرس الباب، وبما أنه لم يفتح فكرت أنه ربما لم يكن هناك، واستخدمت المفتاح، كان لديها مفتاح. لقد فتحت الباب ودخلت لكتابة ورقة له، وأرادت وضعها على طاولة المطبخ.

وقالت شيئا آخر، شيء لم يتضح معناه بالنسبة لي سوى لاحقا، فقد ذكرت أنها قد جُرحت.

لقد دخلت ولأنها لم تتمكن على الفور من العثور على مفتاح الإضاءة، نادت عليه باسمه، وعندما سارت عدة خطوات في الردهة اصطدمت بشيء في الظلام: السلم. كان أحدهم قد أنزل الباب المؤدي للسطح وسحب السلم إلى الأسفل. كانت السيدة روث تعمل معه منذ ستة عشر عاماً، منذ تقاعده، لكنها لم تواجه ذلك من قبل. لم تذهب إلى الأعلى. لهذا السبب لم تتوقع ذلك.

لقد عثرت عليه في العاشرة، وحضر الطبيب في العاشرة والنصف وأثبت موته. في هذا الوقت عرفت أنه مات، لكن الأمر استغرق ثلاث ساعات أخرى حتى استجمعت قواها واتصلت برقمي. كانت السيدة روث امرأة شجاعة قصيرة ذات وجه عريض، ولها عينان بارزتان قليلا، وكان شعرها مضفرا في عقدة متدلية عند عنقها.

كانت هي وزوجها مساء الجمعة عند المبنى المشيد من الطوب الأصفر في حديقة الفناء حيث تقام الصلوات في كنيسة الحي. عندما خرجا مرة أخرى كان هناك بريق غريب يعلو وجهيهما، انعكاس عدالة صعبة

واثقة من نفسها، سمة غالبة على هذه المنطقة، لكن ذلك لم يغير المودة التي كانت تشعر بها تجاهه. ربما كان والدي عاصيا مطرودا من رحمة الإله، ولكن البساطة التي كان يعيش بها حياته كانت تجعلها تتسامح تجاه ذلك.

في صورة التقطتها لهما كانا يقفان جنبًا إلى جنب، كتفا الى كتف، وينظران بعيون مستديرة إلى الكاميرا، بينما حاول والدي، وهو في الواقع من أردت التقاط صورة له، كان يحاول الهروب من الصورة. كانت هي تقف في المقدمة، وهو يبدو كما الخيال وراء الباب الزجاجي. لم يكن يحب أن تُلتقط صور له، أو دعنا نقول لم يكن يحب الظروف التي تتطلبها الصور، تلك الجلبة. هكذا إذا في شهر سبتمبر. في سبتمبر جاءت مكالمة السيدة روث.

أما الشاب الذي اتصل بي بعد شهر واحد فقد كنت رأيته فقط ثلاث أو أربع مرات من قبل، ولا أعتقد أننا تبادلنا أكثر من بضع كلمات، صباح الخير، وداعا، ومع ذلك عرفت على الفور عندما سمعت الصوت من هو. كان يؤدي خدمته المدنية في البيت الذي قضت فيه أمي آخر سنواتها. عندما كانت تصطحبني عبر

الدرج الصاخب إلى الباب، كان يقابلنا في بعض الأحيان. كان معظم الوقت يرتدي صندلا وقفطانا مصنوعا من نسيج ثقيل مزين يصل إلى كاحليه. لكن ليس هذا ما لفت نظري إليه، ولكن لأنه كان ينظر إليها نظرة غريبة. كان عندما ينظر إليها كانت تبدو في عينيه نظرة هائمة. هل كانت علامة على توقيره لتلك المرأة كبيرة السن؟ ربما. كان يربت عليها بعينيه (عليك أن تقولها هكذا) بينما كان يرمقني بنظرة تكاد تكون نظرة غضب، من أسفل إلى أعلى، كما لو كان يريد على الفور كسر رأسي على صدري. لا شك في أنه رآني متسللا، رسولا من العالم الذي كانت تنتمي إليه يوما ما.

كان هو ذلك الشاب الذي اتصل بي بعد شهر وصرخ في أذني "لقد ماتت، اسمعني، لقد ماتت." وبعد ذلك مباشرة صوت الممرضة التي خطفت سماعة الهاتف من يده: "معذرة يا سيد كارست."

كان الأمر يسير على ذلك النحو: اعتادت الممرضات على أنها تقوم في الليل بإغلاق مقبض الباب بجلب كرسي ووضع ظهره تحت المقبض، ظنوا أنها واحدة من العديد من المراوغات التي كانت تقوم بها، ولكن عندما ظل المقبض غير قابل للفتح في الصباح أيضا أرسلت الممرضة، التي بدأت نوبة الصباح في الساعة السادسة، الشاب، الذي هبط الدرج في تلك اللحظة مصادفة، إلى مدير البيت، ولكن بدلا من تنفيذ المهمة، ألقى نفسه على الباب ودفعه بقوة، وعندما دخلا الغرفة، وجداها ممدة على السرير، مرتدية ملابسها، ومغلقة عينيها، كما لو كانت نائمة. ركع الشاب بجانب السرير ووضع يده على خدها.

لم أفكر في الأمر في ذلك الوقت، لكن الآن حيث أجمع الملاحظات، انتبهت إلى أنه كان يحفظ رقم هاتفي عن ظهر قلب، لم يضطر للبحث عن رقمي، ولكن عندما طلبت منه الممرضة أن يترك ما فعل، ذهب على الفور إلى الهاتف واتصل بي.

كان والدي قد غير مكان سكنه ست مرات من قبل، ودائما في توتنبرج أو في المناطق المحيطة بتوتنبرج، وفي كل مرة إلى شقق أفضل، كانت تزداد اختلافا عن الشقق التي تشاركاها في الماضي، وأخيرا انتقل إلى المنزل القائم أعلى المدينة، منزل في حديقة واسعة تنحدر إلى المدينة.

في المساء كان يذهب من غرفة إلى أخرى وينزل الستائر، ثم إلى الردهة ويغلق الفتحة المؤدية إلى السطح، وكانت لوحا خشبيا أبيض مع حلقة معدنية مثبت في نهايته خُطاف خشبي. كان يسحب الدرج ويصعد إلى الغرفة العلوية التي كانت منخفضة جدًا لدرجة أنه كان يضطر إلى الانحناء عندما يمشى هناك. كان يوجد بها ثلاث نوافذ صغيرة مضمنة في السقف المنحدر: كان يمكن من إحداها رؤية الطابية، التي كانت عبارة عن نتوء جبلي في الغابة يمكن من أعلاه رؤية المدينة الواقعة في منتصف ولاية هيسين التي أضرم الفرنسيون النار فيها في أثناء الحرب على وراثة العرش (كان الأطفال يتعلمون ذلك في حصص التاريخ في مدينتهم)، ومن الأخرى كان يمكن النظر إلى فايسين شتاين، وهو ممر طويل تصطف على جانبيه مقاعد كان يزورها العشاق الشباب الذين لا يعرفون إلى أين يذهبون في المساء؛ من النافذة الثالثة كان يمكن أخيرا رؤية المدينة عبر أشجار الصنوبر.

في نفس تلك الساعة كانت أمي تسند الكرسي إلى الباب وتدفع مسند الظهر تحت المقبض، كان إجراء احترازيا، كي تمنع الممرضة التي كانت تمر ما بين الحادية عشرة والنصف والثانية عشر من الدخول؛ لم تكن تفعل أي شيء مخالف، لكنها لم تكن تريد أن تدخل تلك الفظّة (كما كانت تصفها) إلى غرفتها هكذا، علاوة على ذلك كان يزعج أمي حديث تلك المرأة بلهجة المنطقة التي ينطقون فيها حرف الراء نطقا كريها. بعد ذلك كانت تفتح الستار والنافذة وتنظر إلى الخارج. كل مساء، في وقت ثابت.

كنت أعلم أنهم يتناولون وجبة الإفطار في ذلك البيت في الساعة الثامنة والنصف. ولأنها كانت ترفض الذهاب إلى الغرفة المشتركة حيث يتناول الآخرون طعامهم، أي أولئك الذين كانوا قادرين على القيام بذلك، كانت الممرضة تجلب لها الإفطار في الغرفة. وكانت تجدها في كل مرة بالفعل مستيقظة ومرتدية ملابسها. كانت تأكل شريحة من الخبز البني وتشرب كوبين من القهوة، وكانت تعيد كل شيء آخر. كان ذلك المشهد يتكرر كل صباح. وكانت الممرضة تقول وهي تأخذ الصينية في كل مرة: "لكن يا سيدة كارست، عليك أن تأكلي."

لقد غادرنا في الساعة الثامنة تقريبا، ومر الوقت حتى أصبحت منتصف العاشرة. ذهبت إلى غرفة معيشة والدي، أغلقت الباب من ورائي واتصلت بها. كان لديها ميزة ـ لم تسع إليها ولكنها حصلت عليها ـ فقد كان لديها هاتف. ولأنها كانت تحتاج الطاولة الصغيرة التي كانت في الأصل مخصصة للهاتف كي تضع عليها ماكينة الخياطة فقد وضعت الهاتف على الأرض، تحت الحوض بجانب الباب.

بعد رنين الهاتف عدة مرات التقطت السماعة وقلت لها ما حدث، ساد الصمت للحظة، لذلك اعتقدت أنها لم تفهمني. ـ "هل سمعتِ؟" ـ "نعم"، ثم قالت لشخص يبدو أنه كان موجودا في الغرفة: "انتظري، سوف أساعدك على الفور." ثم قالت لي بنفس الصوت المبتهج: "تخيل، لقد سكبت الدلو" ـ سألتها مرة أخرى "هل فهمت"، فقالت "أنا لست صماء". وبعد أن تبادلنا بضع كلمات أنهينا المحادثة. وكان ذلك، باستثناء

المحادثة الهاتفية والكلمات القليلة التي تبادلناها بعد أيام عند المدفن آخر ما دار بيننا من حديث، لأنها ماتت أيضا بعد بضعة أسابيع.

*

نعم، هكذا كان الأمر. أولا هو، ثم هي. هو في سبتمبر، هي في أكتوبر. جاءت إلى جنازته، كما جاء إلى جنازتها. هذا يبدو غريبا، ولكن هذا ما حدث. كانت ميلا هي التي اكتشفت وجودها.

في الليلة التي اتصلت بها السيدة روث انفتح الباب وظهرت ميلا. كانت قد استيقظت على صوت الهاتف ودخلت غرفتي؛ استندت إلى الباب واستمعت، كان رأسها مائلا، كان تقريبا على كتفها. كانت قد جاءت من برلين في فترة ما بعد الظهر. ولأنها كانت ترفض استخدام المترو فقد استقلت سيارة أجرة من المحطة المركزية في فرانكفورتر، أقلتها إلى إنكهايم. وبعد نزهة قصيرة عبر المرعى جلست على جهاز الكمبيوتر المحمول الخاص بي وبحثت عن صور للبرنامج. أرادت العودة في اليوم التالي ولكن عندما سمعت بما حدث، تخلت عن خططها وجاءت إلى توتنبرج.

في الصباح، وقبل الإفطار، أرسلت الصور التي اختارتها إلى المسرح. بعد ساعة - كنا نقف في الردهة ونَنتوي المغادرة – ولكن جرس هاتفها المحمول دق. وبما أنها لم تدخل إلى إحدى الغرف وإنما جلست على أحد المقاعد، استمعت إلى المحادثة. كانت أنيتا، مساعدتها، على الهاتف. والطريقة التي تكلمتا بها والجهد الذي بذلته ميلا لإقناعها بأنه كانت هناك فعلا حالة وفاة هي التي أخرت عودتها، وبسبب تفننها في الإقناع كي تمنع السيدة الأخرى من المجيء أيضا إلى فرانكفورت (سواء كان ذلك بسبب الشوق إليها أو للتأكد من أنها تقول الحقيقة)، أدركتُ أن المتصلة ليست فقط مساعدتها، ولكن أيضا حبيبتها.

كانت ميلا في منتصف الخمسينيات من عمرها، لكنها بدت في الضوء الخافت في الردهة كما كانت وقت التقينا أول مرة قبل حوالي ثلاثين عامًا، باستثناء أن شعرها كان قد اعتراه لون نحاسي، نفس لون شعر كل من كن في مثل سنها و اللاتي كانت شعورهن ذات يوم بنية. عندما كان المرء يخرج معها كان من الممكن أن يكون المرء على يقين من أن الجميع سوف ينظر إليها، الرجال وكذلك النساء، ولم يكن من النادر أن تقوم النساء أولا بلفت انتباه الرجال إليها. قد يكون السبب في ذلك أنها كانت جميلة بطريقة هادئة، لا شيء فيها كان يبدو متعاليا أو من هذا القبيل، إلا إذا اعتبر أحدهم أن التناسق في ملامح وجهها أو ذلك الذي تتسم به ملابسها أو حضور شخصيتها الذي ينم عن تواضعها أمور تعبر عن التعالي. (ولكن أيا ما كان السبب فإن ذلك لم يكن ليغير شيئا في تأثيرها.) كنت أشعر في بعض الأحيان وكأنها تمارس بوجودها وحده تأثيرا تربويا. لأنها كانت هادئة كان الآخرون يخفضون أيضا أصواتهم. ولأنها كانت لا تثير ضجة حول شخصيتها أو نفسها، كان حتى المدّعون بشكل مزمن ودائمو الحديث عن أنفسهم يتواضعون في حضرتها. ولأنها لم تكن تشرب الكحول أو بالكاد (ربما كأس أو اثنين من النبيذ المخفف بالماء موزعة على فترة المساء)، كان الشرهون في شرب الخمر عندما يجلسون معها إلى الطاولة، يتخلون عن شرب هذا الكأس أو ذاك. الشيء المدهش فضلا عن ذلك تمثّل في أن تأثيرها المهدئ كان يستمر لفترة حتى بعد رحيلها،

حيث كانت الأجواء تظل بعد ذلك معتدلة، أصحاب الأفواه الكبيرة كانوا يتبادلون النظرات، والعطشى للخمر يمارسون التخلي عندما يلقي إليهم النادل نظرة استفسار فيجيبون بهز رؤوسهم.

*

استقبلت هيرتا خبر وفاته بنفسه اللامبالاة مثل كل شيء آخر كنت أحكيه لها عنه، لذا لم أعرف حتى ما إذا كانت المعلومة قد توغلت إليها. ربما اعتقدت أنها أصبحت عالقة في لوحات القماش التي تحيكها حول نفسها.

الجنازة؟ لا، لم يكن ظهورها متوقعا، ومع ذلك اتصلت بها مرة أخرى بعد الاتفاق على كل شيء مع منظم الجنازات. سألتها: "هل تريدين أن تأتي معي؟، " هل تودين أن أقلك؟"، فقالت متعجبة: "كيف؟" ـ وكأن ما قلته كان أكثر فكرة سخيفة سمعتها على الإطلاق. ثم فجأة سمعتُ نوعا من السعال. نوبة سعال كما لو كانت تختنق. ولكنها جاءت بعد ذلك، وقفت على التل بين أشجار الصنوبر ونظرت إلى أسفل.

ولأنه لم يكن لديه أي صداقات في السنوات الأخيرة لم يحضر جنازته سوى عدد قليل من الناس، جاء الجيران، ولكن ليس كلهم، ولكن من كل بيت شخص واحد، كأنهم تم تكليفهم أو اختيارهم عن طريق القرعة: هؤلاء الناس الذين كنت أعرفهم معرفة عابرة فقط. كما جاءت السيدة روث، وكان في يدها منديل تمسح به المرة بعد المرة أنفها، في حين وقف زوجها يحدق في أطراف حذائه؛ وعدد قليل من كبار السن من الموظفين من القسم الذي كان يترأسه.

خرجنا من القاعة التي وُضع فيها، وكنا نمشي وراء النعش تحت شمس أواخر سبتمبر، وكان محمولا على عربة مدفوعة كهربائيا في الطريق أمامنا، عندما وكزتني ميلا وقالت: "أليست هذه هيرتا؟"

اصطفت فوق الجبل مجموعة من أشجار الصنوبر الصغيرة وكأنها سرية من الجنود الذين اصطفوا لتأدية التحية العسكرية، وفي فجوة بين الأشجار، وقفت هيرتا، في فستان أحمر لامع (من التفتا، حسب ما قالت ميلا)، وعلى ذراعها معطف رقيق من الجبردين من نفس اللون الأصفر المائل إلى الحُمرة مثل أوراق شجر الليمون أمام نافذتها. ولأني لم أستطع الذهاب إليها مباشرة، وإنما كان علي الانتظار حتى تنتهي شعائر الدفن، مشيت والآخرون وراء السيارة الطنانة، وتبعتنا؛ وكانت أشجار الصنوبر تغطيها إلى المنتصف، وكانت تسير بجانبنا صعودا فوق التل وهي على نفس المسافة (ربما خمسون ياردة)، ولكن عندما التفتُ إليها بعد توديع المعزين كانت قد اختفت. ولكني اكتشفت وجودها مرة أخرى. لم تذهب مثل الآخرين إلى المدخل الرئيسي، ولكن نحو البيت، لذلك لم أجدها للحظة.

فقط أمام الباب الحديدي الصغير، الذي يمكن من خلاله دخول المدفن من هذا الجانب من المدينة، وصلت إليها. ناديتها "أمي، انتظري!" ولأنها عرفت أنها لا يمكن أن تتجاهلني، توقفت. قالت: "أهذا أنت"، كما لو أنها انتبهت إلي الآن فقط.

"إذن أتيتِ."

"صدفة، محض صدفة. كنت أتنزه ومررت مصادفة."

كان من المهم بالنسبة لها التأكيد على أنها حضرت جنازة زوجها مصادفة. صعدنا عبر الباب وسرنا على في الممر، الذي يمر من خلال العشب الجاف وصولا إلى البيت. عند المدخل توقفت ومدت لي يدها كما كانت تفعل دائمًا، ثم التفتت بسرعة وصعدت عبر الممر المغطى بالحصى إلى الدرج، دون أن تعير ميلا، التي كانت تقف بعدنا قليلاً، أي اهتمام.

في جنازتها كانت فقط الممرضة، التي تعمل في القسم الذي كانت به، حاضرة، تلك الممرضة التي كانت تراها فظّة، رأيتها أولاً، ثم رأيت مدير البيت والشاب الذي اتصل بي، ولكنه لم يكن يرتدي القفطان في ذلك اليوم، وإنما حلة داكنة كانت تتطاير حول ذراعيه وساقيه. كان يبدو عليه أنه دلك شعره بالهلام ومشطه مرة أخرى بإحكام، فقد كان ملتصقا بفروة رأسه، كان يمكن رؤية ذلك من الآثار التي خلفتها أسنان المشط في شعره في صورة جدائل، كان يحمل في يده وردة صفراء تميل إلى الاحمرار وصولا إلى براعمها (مثل الراية). جاء مع الممرضات، لكنه بقي على مسافة منهن، حيث وقف على بعد ثلاثة أو أربعة أمتار وراءهن. كان من المستحيل عدم ملاحظة حرصه على عدم إظهار أنه ينتمي إليهن.

لم تكن ميلا هناك في ذلك اليوم، فقد عادت بالفعل إلى برلين قبلها. ربما كان هذا هو السبب بالنسبة لي

في حفظي لكل تلك التفاصيل. أردت أن أصف لها الشاب. أم ربما لأنني كنت أتوقع حدوث فضيحة؟ انفجار انفعالي؟ نوبة غضب؟ لم يجلس في قاعة الجنائز، ولكن بقي واقفا بوجه حزين وراء المقاعد، في حين أن الآخرين جلسوا في مقاعد الصف الأول. طوال الوقت، حتى في وقت لاحق عند أداء الشعائر السريعة عند القبر كنت أشعر بعينيه مسلطة علي، لكنني كلما استدرت تجاهه أشاح بنظره ووجهه إلى الأسفل وتفحص الأرض، ولكن بمجرد أن كنت أنظر بعيدا، كنت أشعر به ينظر إلي مرة أخرى. ذلك الشاب، الممرضة، مدير المنزل، وبالطبع القس، كان نفس القس الذي دفن والدي أيضًا، وهو رجل سمين يشبه معلم الدين في أيام مدرستي؛ وقد تذكرني على الفور عندما اتصلت به. قال: " السيد كارست، هكذا بعد فترة وجيزة من بعضهما البعض". لا أعتقد أنه كان يعرف والداي. كانت السيدة روث قد اتصلت به بعد وفاة جيورج، ومن ثم قام بدوره بالاتصال بي وطلب بعض البيانات التي سيحتاجها في الخطبة التي سيلقيها عند الدفن. ولكن من ناحية أخرى كان بالتأكيد قد رأى هيرتا عدة مرات في أثناء تردده على البيت حتى لو لم تكن ممن يحضرون الصلوات التي يقيمها. من خلال بعض الملاحظات التي أدلى بها خلصت إلى أنه كان يعلم باختفاءها وعودتها.

عندما رفع يديه لمباركتها، حلقت طائرتان من طائرات الجيش الألماني فوق الوادي، وكانتا على ارتفاع منخفض جدًا بحيث بدتا وكأنهما تلامسان رؤوس الأشجار فوق التل المقابل، وعندما نظرت إلى أعلى رأيت عند السياج في نفس المكان الذي كانت تقف فيه أرنبا. ثم عرفت أنه هو، لقد حضر إليها أيضا. لقد أتت في ثوب التفتا الأحمر الداكن وجاء هو في صورة أرنب.

II

في الصباح ، وقبل مغادرتي إلى توتنبورج، صعدت إلى الغرفة العلوية، وفتحت الخزانة، وأخرجت صندوقا من الكرتون فيه الصور وبحثت عن صورة كنت قد تذكرتها عندما استيقظت لكني لم أجدها، ولكن وجدت مجرد نسخة صنعتها منها قبل سنوات، أي صورة من الصورة.

كنت قد أسندت الأصل على طاولة الشرفة على كومة من الكتب وصورتها، وهذا هو السبب في أن الصورة تُظهر الآن بجانب الإطار الأبيض إطارا ثانيا ملونا؛ إذ كان يمكن رؤية: الكتب، وحافة الطاولة، ودرابزين الشرفة، وشريط من السماء الزرقاء، وفي الوسط اللقطة السوداء والبيضاء: أبي جالس في مكتبه في مصنع الصلب مرتديا قميصا ورافعا الأكمام وهو يكتب شيئا على قطعة من الورق. كان يرفع رأسه وهو يضحك، كما لو كان قد تفاجأ بالمصور. لأنه لم يكن يحب أن يتم تصويره فقد كانت واحدة من الصور القليلة له التي كانت موجودة. تركها لي في أثناء إحدى الزيارت مع عدد قليل آخر من الصور الأقدم؛ في قليل من الصور من وقت لاحق كان إما مع آخرين أو كانت اللقطة من مسافة كبيرة، ومن ثَم كانت ملامحه غير واضحة. بغض النظر عن صور بحر البلطيق التي التقطت في أثناء آخر العطلات التي قضاها معا لم يكن هناك شيء يظهره مع هيرتا. إما كانت قد أخذتها معها أو قام هو بإتلافها، ولم تنج هذه الصور إلا عن طريق الصدفة.

عندما نزلت إلى الشقة ، كانت ميلة جالسة في المطبخ. نهضت وأعدت القهوة. سألت "هل هذا هو؟". فأومأت بنعم. أخذت الصورة من يدي ونظرت إليها.

"كم كان عمره وقت ذا؟"

"أربعة وثلاثون".

فكرت. نعم، براندنبورج، مصنع الصلب ... إذا

لا يمكن أن يكون أكبر من أربعة وثلاثين.

"صغيرا جدا؟"

"صغير جدا."

كانت ميلا قد جاءت في المساء، في اليوم الأول من أسبوع عيد الميلاد المجيد. من أجل "تفكيك أمتعة المنزل" ... أصرت مديرة بيت المسنين على ذلك، ولأن ميلا وافقت على مرافقتي لم يكن متاحا فعل ذلك إلا خلال ذلك الأسبوع فقط، الأسبوع بين السنتين.

أمتعة المنزل؟ أواه، لم يكن لديها أي شيء يُذكر، فقط ما كان في خزانة الملابس: بعض الملابس الداخلية، الأحذية، ملابس الخروج، ماكينة الخياطة، والتي، عندما لم تكن قيد الاستعمال كان يتم تخزينها أيضا في الخزانة. لكنها كانت تقريبا دائما تستخدمها.

على الرغم من أن تواصلها مع البائعين الذين كانت تتعامل معهم لتغطية احتياجاتها الضرورية كان قد انقطع منذ سنوات، كانت دائمًا تتفنن في الحصول على أقمشة جديدة ثم تجلس هناك، تنحني على الماكينة، والإبرة بين شفتيها المضغوطتين، ومعها دبوس، كنت عندما أدخل عليها تخرجه وتضعه في أحد الأكمام، ودائما في نفس الموضع على مسافة شبرٍ تحت الكتف.

كانت الملابس مكدسة في خزانتها، ملابس كانت تحيكها من أجل نوع ما من الاحتفالات التي لم تتم دعوتها إليها، أو لم يعد أحد يدعوها إلى مثلها. لكنها ظلت تحيك الملابس. كما لو كانت تريد أن تثبت مدى فائدة شراء ماكينة الخياطة. كأنه عمل قسري فرضته على نفسها، هكذا كان يبدو لي كلما رأيتها. لكنها لم تشعر به بهذه الطريقة. الكتان، الأحذية، الملابس، ماكينة الخياطة، منافض السجائر التي وضعت في كل مكان، ومصباح الطاولة المصنوع كله من الزجاج، كان هذا، فضلا عن الصور (التي كانت في مظروف رمادي) كل ما تبقى لها.

بين عيد الميلاد المجيد ورأس السنة الجديدة إذا.

أولا عندها، ثم عنده. جمعنا الأشياء في عدد قليل من الصناديق، وعندما انتهينا تقريبا، دخلت علينا المديرة وعرضت وضعها في المخزن مؤقتا، حتى نعرف ماذا سنفعل بها. ثم انطلقنا إلى أسفل الجبل عبر المدينة ثم إلى أعلاه مرة أخرى على الجانب الآخر. كان يوما مشرقا ومشمسا وباردا جدا. اكتست الشوارع بأجواء يوم العطلة في حالة من الكسل.

فتحت باب المنزل ورفعت الستائر، دخل الضوء مائلا من خلال النوافذ. تفكيك أمتعة المنزل؟ لا، لم يتعلق الأمر بذلك، وإنما بالحصول على نظرة عامة. كان يجب سؤال الأشياء عما يجب أن يحدث لها، ولأنه كان من الواضح لي أن الأمر عبارة عما يشبه اختبار الكفاءة فقد مشيت بين الأشياء وأنا أشعر بأني أفعل شيئا خاطئا، شيئا مستهجنا.

في حين حاولت ميلا تشغيل ماكينة القهوة، دخلت أنا غرفة مكتبه، كانت غرفة صغيرة تطل على الحديقة، ونظرت حولي. أخرجتُ ملفا من بين ملفات أخرى على أحد الأرفف الصغيرة خلف طاولة المكتب، وعندما فتحته وجدت الرسالة التي تم إرسالها إلى بلوتوف، والتي ما كان يجب أن يتم إرسالها إلى بلوتوف أبدا، وعندما رأيت نسخا من الرسائل التي كتبها بنفسه والتي ردوا بها عليه مثبتة تحت الرسالة أغلقت الملف ووضعته في الردهة حتى لا أنساه في وقت لاحق، عندما أشرع في الرحيل.

لم يغادرني طوال الوقت الشعور بأني دخيل، وأنا أتجول في المنزل، وعندما كنت أفتح وأغلق الخزانات. ثم، في فترة ما بعد الظهر في الشفق، كنا قد ارتدينا بالفعل المعاطف، ألقيت مرة أخرى نظرة في غرفة النوم. أمام السرير كانت هناك خزانة، وكانت نوع من خزانات الملابس التي كانت تثبت في من الجدار إلى الجدار الآخر، مع وجود أبواب كبيرة تعلوها أبواب أصغر، أبواب منزلقة. ودون أن أعرف وقتها أو

حتى لاحقا السبب، أضأت المصباح وصعدت على كرسي، فتحت أحد الأبواب، وعندما رفعت كومة من مفارش الأسِرّة الموضوعة في الخزانة، رأيت شيئًا ملفوفًا في قطعة قماش، وعرفت حتى قبل أن أخرجه ماذا كان.

لقد كانت الكاميرا.

أقول الكاميرا ولا أقول كاميرا، لأني عندما كنت أقف هناك على الكرسي في غرفة نومه في توتنبورج كنت أعرف أي واحدة كانت.

سألتني ميلا ونحن ننزل الجبل "ما نوع هذه الكاميرا؟" فأخبرتها أنها : "إجزاكتا 6، فيلم دوار، صنعت عام 57"، وأذكر أنني فكرت على الفور في أن هناك خطأ ما. لم يكن هناك سبب لذكر عام الصنع، إذ لم يكن يظهر على الكاميرا، وكما لو كنت أريد إلهائها عن ذلك، انحنيت إلى الأمام ومسحت بظهر يدي زجاج السيارة الذي تكثف عليه بخار الماء من أنفاسنا.

في الصباح شمس، وبعد الظهر غيوم، سُحب كالجبال الشاهقة في السماء بلون الكبريت الأصفر، والآن بعد أن حل الظلام تساقطت أمطار متجمدة كانت تختفي الشوارع وراءها مع كل عاصفة جديدة كما لو كانت تختفي وراء ستار. كانت ميلا تقود السيارة، وكانت تجلس منتصبة مثل الشمعة وراء عجلة القيادة، وتضيق عينيها وتحدق في الطريق، الذي كان يسير في منحنيات صوب الجبل.

وعندما وصلنا إلى الطريق السريع بدأت في الحديث عنها مجددا.

"لماذا كانت هناك؟"

"لا أعلم".

"هل هي جيدة؟"

"الكاميرا؟"

"نعم".

تظاهرت بأن علي أن أفكر أولا.

"أعتقد ذلك".

كان بإمكاني أن أحكي لها أني كنت أفكر لفترة من الوقت في شراء تلك الكاميرا تحديدا. كانت أرخص من اليابانية التي يستخدمها معظم الناس في عملهم، وجيدة بنفس القدر. في برلين، ليس بعيدا عن المنزل الذي كنت أسكنه كان هناك متجر كان بإمكاني شراءها فيه.

قال مالك المتجر لشخص ما أن يشتريها له في برلين الشرقية ويهربها عبر الحدود. كنت أحتاجها فعلا في ذلك الوقت. ولكن لم يكن لدي سوى القليل من المال، وكانت المعدات باهظة الثمن، التقرير الأول الذي أعددته استخدمت فيه كاميرا مستعارة. ولكن بعد ذلك تخليت عن الفكرة. تم صنعها في دريسدن. إذا تلفت ستكون مشكلة كبيرة؟

لكنني لم أقل ذلك. ليس في ذلك اليوم وإنما لاحقا.

*

ظاهريا لم يتغير شيء. استيقظت مبكرا وبعد الإفطار، الذي عادة ما يكون مجرد فنجان من القهوة وقطعتين من الخبز المقرمش، صعدت إلى الغرفة العلوية وكتبت ردودا على بعض الرسائل. في بعض الأحيان كنت أذهب إلى أحد النوافذ المائلة، أفتحه وأنظر عبر أسطح المنازل إلى الطائرات التي تطير على مسافة قصيرة من بعضها البعض فوق أوفنباخ وساكسنهاوزن حتى تهبط بعد ذلك مباشرة في مطار راين ماين. كل شيء كان على ما هو عليه دائما.

ولكن عندما حان الوقت للذهاب إلى القبو، تلك الغرفة المظلمة، ترددت، ولم يكن من النادر أن أنزل إلى هناك، وأقف أمام الباب لفترة من الوقت ثم أرجع مرة أخرى. عندما اتصلت بصديق أدركت أن زوجته التي أجابت على الهاتف كانت تتكلم بلهجة حذرة، وقالت لي إنها تستطيع التحدث معي بشكل طبيعي لأني لست مريضًا ثم ضحكت بعدها. وبعد أن أعطت سماعة الهاتف لزوجها كررتُ الجملة التي قالتها، ثم أدركتُ أنني بالكاد أستطيع أن أتابع المحادثة. سمعت كلمات الصديق وكأنها تأتي من خلال جدار يمتص الصوت، في حين أن كلماتي كانت تدوي بطريقة غريبة في رأسي، كما لو كنت لا أجلس في الغرفة وإنما في قاع بئر عميقة. بقيت على هذا النحو لعدة أيام .عندما أتحدث مع شخص ما أسمع صوتي في نفس الوقت عاليا جدا وكأنه صوت آلة الكونترباص الرنان الذي يملأ الغرفة، بينما كان صوتي بالكاد مسموعا للآخرين. دائما كان الآخرون يقولون: فيليب، تكلم بصوت أعلى! عندما وصلتني أخبار جيدة بعد ذلك، فكرت في أني لا أستطيع إخباره بها الآن.

وجدت في الخزانة رزمة أوراق ذات ثقوب جانبية كان والدي قد أحضرها لي قبل سنوات، كما وجدت في القبو كماشة، كانت من بين أدواته. عندما كنت أمر أمام مرآة كنت أتوقف وأنظر إلى نفسي كما لو كنت أتوقع أن أرى التشابه معه وقد أصبح الآن أكثر وضوحا. لم تكن حركاتي تتسم بالمهارة، وكثيرا ما كانت الأشياء تقع مني عندما أريد الإمساك بها، أو لا تصل يدي إليها بسهولة. وكنت كثيرا أضع الأشياء في غير مكانها ولا أجدها بعد ذلك: القدّاحة، أو المفتاح أو المحفظة.

عند الظهيرة، بعد التسوق، جلست في المقهى وطلبت إسبرسو. وفجأة اكتشفت أني كنت أنظر إلى يدي وأفكر: إنها يداه. سواء كانت تعبيرات وجهي أو حركات جسدي، أو عاداتي أو الأمور التي أفضلها، أو الطريقة التي أسند بها رأسي على يدي عندما أتحدث، أو وضع ساق فوق الأخرى في أثناء الجلوس، أو

طريقة التقاطي للشوكة، أو صب مشروب في كوب - وضعت كل شيء موضع الاختبار، وظهر لي كل شيء في ضوء جديد اتسم بالتهديد. فكرت في أن كل شيء كان يشبهه. وعندما دفعت وقمت لم أر نفسي أمر أمام نوافذ المتجر، وإنما هو.

لفترة طويلة لم أعد أعاني من أمراض التوهم، ولكن الآن تأكدت من أني بدأت أعاني من جميع الأعراض التي كان يعاني هو منها بسبب مرضه. لأسابيع طويلة شعرت بضغط في معدتي، وتنميل في ذراعي اليسرى، وطوال الوقت كان الأمر كما لو كانت هناك يد تقبض على قلبي.

في المساء نمت من الإرهاق واستيقظت بعد ذلك بساعة ثم نهضت وجلست على الكرسي وحاولت القراءة، ولكن أفكاري شردت على الفور، وتذكرت أني كنت أستيقظ في الليل في بعض الأحيان لأني كنت أسمعه يتجول في البيت، وفي الصباح كنت أجد النوافذ مفتوحة. كان هو من يفتحها كي يدع الدخان يخرج. أطفأت السيجارة، ثم أغلقت الكتاب وخرجت إلى الشرفة، ثم انحنيت إلى الأمام وتركت ذراعي تتأرجحان أمام ساقي ذهابا وإيابا، وفجأة انتبهت إلى أنه هو نفسه كان يفعل ذلك في بعض الأحيان كي يضغط على الرئتين لإخراج الدخان منهما، كان يقف إلى النافذة ويأرجح ذراعيه يمينا ويسارا.

ثم في أوائل شهر نوفمبر عادت إلي الأحلام مرة أخرى. كانا حلمان. أعيد حكيهما كما دونتهما في ذلك الوقت.

كنت أراهما من خلال الفروع المنخفضة للأشجار؛ كان هو يستلقي على ظهره، وذراعاه تبدوان كما لو كان نائما (أو في حالة استرخاء بعد ممارسة الجنس)، الأجزاء الداخلية من ذراعيه تنصع بلون أبيض. الأمر الغريب كان وجود منديل على رأسه، كان رأسه مغطا بقطعة قماش موزعة على وجهه. وهي راقدة بجانبه، ملتصقة به، وكأنها تريد حمايته، كانت تضع ذراعها على صدره. كانت ترفع مقعدتها قليلا، وساقها اليسرى على ساقيه، ورأسها على كتفه. وهكذا، في هذا الوضع من الاسترخاء التام، يتوغلان في الأرض مثل جذور الأشجار.

هذا هو حلم اليوم.

في بلوتوف كان لدي هذا الحلم، ثم في توتنبورج، كان يراودني نفس الحلم لفترة طويلة، ولأني كنت أعرف أنهما هما اللذان أراهما كنت دائما أستيقظ وأنا أشعر بالصدمة لأنني رأيت كيف يغوصان في الأرض، وأشعر بالخجل لأني رأيتهما عاريان. لقد رأيتهما عاريين، لذلك لم أحكِ لهما ذلك الحلم. لم أخبرهما لا بهذا الحلم ولا بالحلم الآخر. عندما كانا يسألان في الصباح، فيليب، ماذا رأيت في أحلامك هذه الليلة؟ كنت أهز كتفي وأقول إني لا أعرف. في حين كنت أعرف بالضبط ما رأيت.

كان لدي ذلك الحلم حين كنت طفلا. ثم لم يأتِني مرة أخرى تقريبا طوال فترة نضجي ولكن بعد موتهما عاد مرة أخرى.

كانت أحداث الحلم الآخر تدور في الليل. إنه حلم الغلام والمرأة. كنت أراني أنظر في غرفة بها ضوء متقطع، ربما كان ينبعث من شمعة. كان الغلام يبدو مريضا، كان ملقى على سرير أو مرتبة موضوعة في أحد الأركان، في حين تقف المرأة بجانب الموقد، وتحمل في يدها ملعقة تقلب بها شيئا في وعاء الطهي. كانت تعد له شيئا ليأكله، شيء كان مسموح له أن يطلبه بنفسه لأنه كان مريضا. ولكنها في آخر الأمر كانت تستدير وتذهب إليه وتجثم على صدره. كانت ترفع التنورة وتتحرك للأمام حتى تجلس فوق وجهه، ثم تُسقط التنورة. ثم تبدأ في التحرك صعودا وهبوطا وكأنها تركب فوق رأسه كما يركب أحدهم الخيل، كانت تتحرك أولا ببطء، ثم أسرع. وعندما كان الأمر ينتهي، كانت تقوم من فوقه وتذهب إلى الموقد مرة أخرى، في حين أن الغلام كان يتقلب على جانبه، وعندها كان بإمكاني أن أرى وجهه. كانت إحدى عينيه قد نمت حتى أصبحت ثقبا صغيرا فقط، في حين كانت الأخرى في المكان الذي من المفترض أن تكون فيه عظام الخد، وكان ينظر إلي بتلك العين.

لقد صاحبني ذلك الحلم أيضًا لفترة طويلة، ليس كل ليلة، ولكنه كان يأتيني في كثير من الأحيان، حتى أنني تذكرته على الفور عندما عاد بعد سنوات.

أولا هذا الحلم، ثم ذاك.

ترجمة

صلاح هلال